انحرافات الشخصية

في كتابها The Secret of Childhood قسمت د. «ماريا مونتيسوري» نمو الطفل إلى نمو روحي ونمو من خلال الحركة، فمن خلال الأنشطة التي يستخدم الطفل فيها يديه وحواسه وقدرته على الحركة والجري والتسلق، تتسق روحه مع جسده وينمو بصورة طبيعية. لكن عندما ينشأ الطفل في بيئة «محاصرة» بالأوامر والنواهي والحواجز، حيث لا مجال له للاستكشاف والتعرف على العالم من خلال تجارب ثرية، يهرب الطفل من واقع بيئته إلى الخيالات.

في مدرستي كنت أنا هذه الطفلة الهاربة من واقعها إلى عالم من الخيال. كنت أحب أن أجلس بجوار الشباك مائلة تجاه القضبان الحديدية، كزهرة عباد الشمس، في اتجاه الأشعة الدافئة. كنت أنظر إلى العمارة المجاورة وأتتبع شبابيكها وأشم رائحة طبيخ الشقق. من حبل الغسيل أتخيل شكل السكان وعددهم وأعمارهم، من فرش السرير المتدلي أخمن أذواقهم وألوانهم المفضلة. أحيانًا كنت ألمح أحد السكان أو إحدى الساكنات، فأصحح خيالي وأنسج المزيد من القصص.

هذا هو أول انحراف للشخصية تحدثت عنه د. «ماريا مونتيسوري»: الهروب من الواقع!

أعراض هذا الانحراف هو طفل متململ يمشي بلا هدف، لا يشارك في أي شيء، لا يتحمل أي مسئولية، لا ينهمك في أي نشاط ولا يكمل أي شيء من البداية إلى النهاية. في زمننا هذا، يبتاع الأهل ألعابًا كثيرة وسرعان ما يصاب الطفل بالملل من تلك الألعاب. يستاء الأهل، أو يفرحون، بخيالات هذا الطفل، ويعتبرونه موهوبًا ومبدعًا، حين يتخيل حيوانات طائرة أو حين يشير إلى الأشياء بأسماء غير أسمائها وصفات غير صفاتها. يعيش الطفل في أوهام يشجعه عليها الأهل وفي واقع الأمر طاقته تذهب هباءً!

تعالج «ماريا مونتيسوري» هذا الانحراف من خلال غمر الطفل في بيئة تشجع على حب المعرفة والتعليم الحقيقي، عوضًا عن فضول بلا هدف يحسبه الأهل ذكاء أو شغفًا. مثلًا، بدلًا من كتب الأساطير والصور الخيالية، يقدم نهج المونتيسوري كتبًا عن أشخاص حقيقيين وصور حيوانات وأشياء حقيقية. يشجع الطفل على استكشاف الطبيعة باستخدام عدسة مكبرة ونظارات معظمة ومتر حقيقي لقياس الأطوال وتدوين الملاحظات. فلنتذكر دائمًا أن حرية الحركة من الأعمدة الأساسية في نهج المونتيسوري.

الانحراف الثاني الذي ذكرته د. «ماريا مونتيسوري» هو وجود حاجز نفسي/ عقلي بين الطفل والتعليم! أعراض هذا الانحراف هو طفل ذكي جدًّا لكنه لا يستوعب أي شيء ولا يحتفظ بأي معلومة، أو طفل يبدو أقل ذكاءً كما لو أن عقله قد أظلم.

سبب هذا الانحراف هو هروب الطفل من الواقع للخيال كما ذكرنا، أو إحباط وكبت مستمر أدى إلى انطواء الطفل داخل نفسه وخلق حواجز بينه وبين بيئته. بدلًا من احتواء هذا الطفل «الرافض للتعليم»، يتم السخرية منه وإهانته وممارسة العنف اللفظي والجسدي تجاهه! ومن هنا ينشأ الحاجز النفسي ويكره الطفل مادة بعينها أو الاستذكار ككل، كما ينفر من الدراسة والمدرسة والمدرسين. كلنا نعرف هذا الشخص البالغ الذي يكره الرياضيات أو اللغة العربية أو اللغة الإنجليزية أو التاريخ أو غيرها من العلوم، هذا الشخص هو نتاج اصطدام التعليم التقليدي بعقله الشارد في الصغر.

عالجت «ماريا مونتيسوري» هذا الانحراف بالصبر والحب والجمال! فقالت إن العقل المحروم من الجمال والروح المحرومة من الحب تخلق تلك الحواجز. إذا أردت أن تعلم الطفل

مبادئ الحساب يجب أن تضعه منذ نعومة أظافره في بيئة تتعامل بالأرقام، يرى الأرقام في نتيجة التأريخ اليومي بالمنزل، يراها في المال والمعاملات المالية اليومية، يراها في استخدام الهاتف وميزان الفاكهة ودفع الحساب والصراف والطهو والخبيز! الأرقام مكانها في لغتنا اليومية، نتحدث عن الكم والعدد والوزن والطول كما نتحدث عن اللون والرائحة. لكن الطفل المحاصر في سريره أو حجرته المغلقة، كيف له أن يرى ويحب ويستوعب ويشتاق إلى تعلم الأرقام وقيمتها؟

نفس الشيء ينطبق على الموسيقا واللغات والرسم وعلوم الأحياء والكيمياء والفيزياء والتاريخ والجغرافيا. منذ نعومة أظافره يجب أن يرى ويلمس الطفل كل هذه الأشياء في بيئته، بدلًا من ملصقات شخصيات الكارتون، فلنعلق خرائط العالم ولوحات الكواكب والمجرات وصور جسم الإنسان. لنستخدم ألفاظًا مثل «تجربة علمية»، «كوكب الأرض»، «القمر»، «حشرات»، «زواحف»، «ثدييات»، «طيور»، «كيلو»، «ليتر»، «كوب»، «نصف»، «ربع»، وغيرها من المصطلحات العلمية الحقيقية الواقعية حتى يتولد لدى الطفل الفضول الحقيقي لتعلم تلك الأشياء المبهرة بدلًا من الاصطدام بـ «طلاسم» عند بدء الدراسة.

شجعت «ماريا مونتيسوري» الأهل على إزالة حواجزهم الخاصة لمعالجة حواجز الطفل، كم منا بينه وبين الطبيعة والشمس والنهار والحيوانات حواجز أو نفور؟ كم منا يسخر من الشعوب المختلفة بألوانها وألسنتها؟ كم منا لا يحب القراءة؟ كم منا قد أغلق روحه وقلبه وعقله أمام تعلم شيء جديد؟ كم منا خلق حواجز بينه وبين أفراد أسرته وجيرانه والعاملين على خدمته؟

في النهاية أكدت «ماريا مونتيسوري» على أهمية التكرار في نمو الطفل وقدرته على الإدراك وقالت إن تكرار زيارة نفس الأماكن يساعد الطفل على استيعاب قدر أكبر من المعلومات، وأن الطبيعة أكبر معلم للطفل، بشرط الاحتكاك بها والتفاعل معها لا الانفصال عنها والاختباء منها.

رغم إخفاقاتي العديدة في رحلتي مع «آدم»، فإنني، باتباع فلسفة المونتيسوري، استطعت أن أحميه من العديد من انحرافات الشخصية. «آدم» لديه خيال خصب لكنه ليس منفصلًا

عن الواقع ولا تائهًا في عالم الخرافات. كما أنه منفتح على العلم والمعرفة وليس بينه وبين أي فرع من فروع المعرفة حواجز نفسية. ليس لديه تعلق مرضي بالأشخاص، أو تعلق بالأشياء، أو رغبة في السيطرة، أو شعور بالنقص والدونية، أو الخوف، أو الكذب، كل هذه الانحرافات سببها خلل ما في العلاقة بين الطفل والبالغين من حوله، بالذات الأم والأب والمعلم.

فلندرس معًا بعض المواقف اليومية المتكررة حتى نرى كيف تعمل تلك الانحرافات:

الموقف الأول: المعلم يختار طفلًا من الفصل ويطلب منه مسح السبورة ومراقبة زملائه وكتابة أسماء من يتحدث خلال الشرح.

ستولد نتيجة هذا الموقف عدة انحرافات، سوف يتعلق الطفل تعلقًا مرضيًّا بالمدرس وسيجد سعادة بالغة في تنفيذ أوامره، ومع الوقت سيفقد الطفل الاهتمام بأنشطته ويستبدل بها قضاء المهام من أجل هذا المدرس. سيجد المتعة في إحضار له ما لذ وطاب من المنزل ومطالبة أهله بشراء الهدايا الرمزية له وسيمسح السبورة ويراقب زملاءه بكل فخر وحب. مع الوقت سيتولد انحراف آخر، وهو استخدام هذا المدرس من أجل الحماية والسيطرة والقوة. بدلًا من مواجهة مشاكله بنفسه، سيختبئ الطفل وراء معلمه الأثير، وبدلًا من روح التعاون والحب بينه وبين زملائه، ستتولد منافسة بغيضة ويتعلم الوشاية والتملق والولاء للسلطة. التعلق المرضي بالأشخاص واستخدام البالغين للحصول على السيطرة والتميز قد تحدث مع الأم والأب والمعلم والجد والجدة.

الموقف الثاني: الطفل يحاول حمل فازة من الصيني ونقلها إلى غرفة أخرى. الأم تنهره وتقول إنه سوف يكسرها وإنها ثمينة وإنه لا يستطيع حملها وغير مسموح له بلمسها.

نتيجة الموقف الثاني هو طفل يشعر بالنقص والدونية، وشخص بالغ فيما بعد لا يريد بذل الجهد في أي شيء لاقتناعه بأنه سوف يفشل. يرى الطفل أمه نفسها التي نهرته تطمئن صديقتها التي كسرت الفازة بالخطأ وتقول إنها مجرد فازة حقيرة وفداها ألف فازة. يرى الأم هادئة تمامًا إذا حملت الفازة مدبرة المنزل أو الطباخة. يشعر الطفل أنه عاجز وفاشل وأن الفازة الحقيرة أغلى منه، إنه أقل من الجارة والصديقة والخادمة والطباخة وسائر البشر

ويكبر لديه احساس بالعجز وقلة القيمة.

الموقف الثالث: الطفل على البحر يملأ الدلو ببعض الأصداف والرمال ويقرر الأب أنه حان وقت الانصراف فيحمل الطفل والدلو للسيارة.

الموقف الرابع: الطفل يلعب في غرفته ويأتي ضيف. تأمر الأم الطفل بترك اللعب وإلقاء التحية على الضيف.

الرسالة التي يتعلمها الطفل من الموقفين الثالث والرابع أنه غير مهم وأن «عمله» لا يعني شيئًا. يكبر هذا الطفل ولديه شعور أن كلامه لن يؤثر وأفعاله لن تغير فينزوي ويترك كل قضايا المجتمع و«يمشي جنب الحيط».

الموقف الخامس: يذهب الطفل إلى أبيه ويطلب منه أن يغسل له يديه فيستجيب، ثم يطلب منه أن يحمله فيستجيب، ثم يطلب منه أن يلعب معه فيستجيب، ثم يطلب منه أن يحضر له شوكولاتة، فيستجيب ثم يطلب منه أن ينهر زميله الذي أخذ لعبته فيستجيب، ثم يطلب منه، فيستجيب.

الموقف الخامس يؤدي إلى انفجار الأب لأنه يشعر بالسخرة، واعتماد الطفل على الأب لتحقيق كل رغباته. يتحول الأب من إنسان إلى مصباح علاء الدين ومع الوقت يكبر الطفل ليتعامل مع كل تضحيات الأب على أنها واجب وأنها أشياء مسلم بها. نكران الجميل والإساءة تكون من نصيب الأب والتواكل والكسل يصبحان سمات أساسية في شخصية الطفل.

الموقف السادس: الطفل في المدرسة يتحدث عن والده الذي ضرب فلانًا لأنه ضايقه، وضرب علانًا لأنه أخذ حقيبته، وأمه التي نهرت المدرسة لأنها لا تشرح جيدًا، وحكايات أخرى عن بطولات الأب والأم والجد والجدة والخال والعم.

الموقف السادس من أمثلة الكذب، والكذب من انحرافات الشخصية في الأطفال الذين يهربون من الواقع إلى خيالاتهم. كل طفل يريد «ساحرة طيبة» مثل التي في قصة سندريلا لتحول اليقطين إلى عربة والفأر إلى حصان والملابس البالية إلى ملابس الملوك! نرى في هذا الموقف أيضًا حب السيطرة من خلال استغلال البالغين وقوتهم.

الموقف السابع: الطفل يمتلك صندوقًا يضع بداخله «كنز»، وجد ريشة على الأرض فوضعها في الصندوق. وجد قطعة خشب، وجد حجرًا، وجد جزءًا من لعبة مكسورة، وجد وردة، أو وجد ورقة، كل ما يجده ويعجبه يأخذه ويضعه في الصندوق.

الموقف الثامن: يلعب طفلان في الحديقة ووجد أحدهما كوبًا فارغًا. بدلًا من اللعب معًا بالكوب الفارغ قررا التعارك على من سيمتلك الكوب. في النهاية تم تدمير الكوب.

الموقف السابع يمثل انحراف «حب التملك»، الطفل لا يفعل أي شيء بمحتويات صندوقه! لا هو حولها إلى عمل فني ولا هو درس خواصها ولا هو صنفها حسب نوعها أو لونها. هو يحب الاقتناء فقط! الموقف الثامن يعكس أيضًا حب التملك والاقتناء ولكن تصحبه نزعة تدمير ما يقتنيه حتى لا يأخذه غيره.

الموقف التاسع: طفل في الحديقة يلعب ثم يبدأ بالصراخ والبكاء والجري عندما يرى كلبًا.

الموقف العاشر: الأم والأب يستعدان للرحيل. الطفل يريد الذهاب معهما. الأب يقول للطفل إنهما سيذهبان للطبيب.

الموقفان التاسع والعاشر لهما علاقة بالخوف كانحراف للشخصية. الخوف من الأشياء أو الأشخاص أو الحيوانات أو المواقف، لأن الأهل زرعوا هذا الخوف غير المبرر، والآن يعاني منه الطفل. الموقف العاشر هو استغلال الأهل لخوف الطفل من زيارة الطبيب وهو أسلوب تربية خاطئ ويؤدي إلى دمج الخوف والكذب كانحرافات في شخصية الطفل.

هناك العديد من المنتجات في محلات لعب الأطفال، أو في التليفزيون، تساهم في تكوين وتنمية العديد من انحرافات الشخصية لدى الأطفال. عند شراء أي لعبة للطفل يجب على الأهل دراستها من حيث الهدف والرسالة والاستخدام.

هناك ألعاب وأفلام وفيديوهات للتشجيع على العنف أو السخرية من أي شخص مختلف أو التهكم على الزملاء. كذلك هناك ألعاب وأفلام تشجع الأطفال على الإيمان بالسحر والجنيات والقدرات الخارقة، فنجد الطفل يريد أن يضع لصديقه الخلطة السحرية ليحوله

إلى قرد، ونجد الطفلة تحلم بالجنية التي ستمنحها الجمال والموهبة والتفوق، ونجد العديد من الأطفال يعيشون في عوالم من صنع خيالهم تعوقهم عن تنمية مهاراتهم اليدوية وقدراتهم العقلية.

نهج المونتيسوري يفضل الطبيعة على الخيال وتنصح د. «ماريا مونتيسوري» بالإكثار من جولات الطبيعة «Nature Walks»، ودراسة الحيوانات والطيور والزواحف والأشجار والأزهار والحشرات خلال تلك الزيارات. من خلال استخدام حواسه يدرك الطفل العديد من الحقائق عن العالم من حوله ويتفتح عقله بالأسئلة وشغف المعرفة. كما تؤكد على أهمية استخدام صور واقعية في بيئة الطفل، إذا أردت تعليق صورة كلب على الحائط لا تستخدم كلب كارتوني أو كلب مرسوم أو كلب خيالي بل ضع صورة لكلب حقيقي. وإذا لاحظت اهتمام الطفل بالكلاب، أشبع شغفه بكتب حقيقية عن فصائل الكلاب المختلفة وأنواعها ومعلومات عن صفاتها وخواصها. هكذا يستمتع الطفل بالواقع ولا يغرق في الخيالات وهكذا لا ينشأ حاجز بين الطفل والمعرفة.

أما عن التعلق المرضي بالأشياء، يتعلق الطفل بالأشياء حينما يهجره الأهل مبكرًا، وإذا لم يجد في البشر من حوله الإشباع العاطفي الذي يحتاجه، يبدأ في اقتناء الأشياء والتعلق بها. الكثير من الصفات الكريهة في تعامل الأطفال مع العالم من حولهم سببها «قسوة» الأهل، تلك القسوة التي تكون بدافع الحفاظ على مصلحة الطفل.

في عالمنا الكئيب يقرر الأهل مواعيد استيقاظ الطفل ونومه حسب جدولهم، ويقرر الأهل مواعيد رضاعة الطفل وأكله حسب احتياجاتهم، لا حسب احتياجاته. يولد الطفل في منزل يخشاه، ويشعر سكان هذا المنزل بالتهديد من وجوده، يتخيل الأهل أن بكاء الطفل تلاعب بهم، واحتياجه لوجودهم محاولة منه للسيطرة عليهم. يتبدل الحب والعطاء والحنان بصراع وهمي بين قوى غير متعادلة. العنف النفسي ضد الطفل ومحاولات ترويضه وتدريبه المستمرة ليخضع لرغبات وتوقعات الأهل، تصنع طفلًا غاضبًا عنيفًا، أو طفلًا غاضبًا متقوقعًا على ذاته – طفل «مطفي». هذا الطفل يكذب ويضرب ويتلاعب بزملائه من أجل

الحصول على غايته، داخله شعور بالدونية والنقص يخفيه وراء قصص من صنع خياله عن أم وأب لا وجود لهما في الواقع.

تنصح «ماريا مونتيسوري» الأهل بالحب المطلق، أحب طفلك كما هو! هذه نصيحة بسيطة ولكن تطبيقها من أصعب ما يكون. للأسف تعثرت كثيرًا في تطبيق هذه النصيحة، خاصة بعد أن أتم «آدم» عامه الرابع وأصبح من المستحيل غض البصر عن «اختلافه» عن نمط النمو الطبيعي للأطفال.

أعلم! أحاول! أجاهد نفسي!

أعلم جيدًا أنه حتى أستطيع أن أحب طفلي كما هو، يجب أن أهجر كل توقعاتي لهذا الطفل وأن أتعامل معه يومًا بيوم، وأن أقرأ رسائله وشفراته ومحاولاته للتواصل معي. يجب أن أتواضع! أنا لم أصنعه ولا أمتلكه! لا يجب أن أنسب لنفسي أي أفضال، وألا أعاقبه على عدم تحقيق أحلامي وطموحاتي. عليَّ أن أتقبل طفلي كما هو وأن أستمتع بمراحل حياته المختلفة. الحب المطلق يحتم عليَّ مساعدته على فتح الأبواب التي يطرقها بدلًا من أن أدفعه في طُرق لم يخترها.

أعلم! أحاول! أجاهد نفسي!

أقرأ، وأعيد قراءة، كلمات د. «مونتيسوري» وهي تحذرني من استخدام الصفات السلبية، لا يجب أن أكرر على مسامع طفلي أنه غبي أو أنه «حمار» أو أنه لن يفلح أو أن فلانًا أفضل منه أو أنه خيب أملي أو أنه لا يستحق حبي وغيرها من الإهانات المستترة خلف ستار التربية. هذا الأسلوب في «التربية» يصنع حواجز بين الطفل وأهله ومدرسته وزملائه والعلم! الطفل المتهم بالغباء يصاب فعلًا بالغباء، كما أن الطفل المتوقع منه كسر الكوب سيكسره، وسينكسر معه.

أعلم! أحاول! أجاهد نفسي!

احترام الطفل يبدأ باحترام احتياجاته في مراحل عمره المختلفة واحترام قدراته، قدرته على الابتعاد عن أمه والانفصال عنها، وقدرته على التعامل مع الغرباء، وقدرته على مشاركة لعبه، وقدرته على التحكم في انفعالاته، وقدرته على فهم الطلبات والتوجيهات، كل هذه

القدرات تختلف من طفل إلى آخر وتجاهلها يؤدي إلى صدامات تؤذي العلاقة المستقبلية بين الطفل والأهل.

إذا أردت أن تعرف إذا كنت تحترم الطفل بالقدر الكافي، تخيل أنك فقدت قدرتك على الحركة، وفقدت قدرتك على الكلام، وفقدت قدرتك على التعبير عن احتياجاتك، وأصبحت في رعاية شخص ما. كيف تريد أن يتعامل هذا الشخص معك؟ هل تريده أن يتركك تبكي وتصيح وتنادي؟ هل تريده أن يغلق عليك الباب ويذهب إلى حال سبيله؟ هل تريده أن يحبسك في المنزل ليل نهار؟ هل تريده أن يتذمر من خدمتك؟ هل تريده أن يهمل تسليتك؟ هل تريده أن يضربك إذا بكيت أو تألمت أو أسقطت شيئًا؟ هل تقبل أن يعاملك هذا الشخص كما تعامل طفلك اليوم؟

انحرافات الشخصية تبدأ في المنزل وعلاجها لا يتم إلا إذا تغير ما يحدث بالمنزل! الكذب والخوف والعنف والتلاعب بمشاعر الآخرين كلها آفات تولد بين أحضان الأهل ومباركتهم!